سياسة مصـر التجـارية

فى عصرى الأيوبيين والمماليك

د٠ صبحى لبيب

جامعة كييل ـ ألمانيا الغربية

مقـدمة :

لعلنـا نذكر المعركتين العالميتين : معركة بلاط الشهداء أو تور أو بواتييه عام ٧٣٢ ، ومعركة تاس (طلس/ تالس : Talas) عام ٧٥١ عند نهر طلس فى وسط آسيا ٠ هاتان المعركتان تبرزان بوضوح اتجاهات التوسع الاسلامى ٠ معركة بلاط الشهداء انتهت بوقف التوسع الاسلامى فيما وراء جبال البرنيز ٠ ومعركة طلس انتهت بانتصـار الفرق الاسلامية على جيش الصين ٠ وترتب عليها تغلغل الاسـلام والحضارة الاسلامية فى وسط آسيا ، وانتهاء نفوذ الصين وامتـداد الحضارة الصينية فى المنطقة ٠

وبظهور الدولة السامانية فى خراسان وبلاد ما وراء النهر (٨١٩ ـ ١٠٠٥) وبقيام دولة البلغر أو البلغار فى روسيا نشطت العـلاقات التجارية بينهما وبين شمال أوربا ، كما يتضح من آلاف العمـلات السامانية التى أمكن العثور عليها فى روسيا ومناطق بحر البلطيق ، وفى السويد والنرويج وشمال ألمانيا والدانمرك ٠ ساعد على امتداد هـذه التجارة انتشار الاسلام وبدء استعمال اللغة العربية فى دولة البلغار

هذه ، وهى التى كانت تقع على الطريق التجارى بين وسط آسيا والدولة السامانية من ناحية ، وشمال أوربا من الناحية الأخرى • وعند الطرف الغربى من الامبراطورية العباسية أقام عبد الرحمن الداخل دولته الأموية المشهورة فى التاريخين الأوربى والاسلامى عام ٧٥٦ • والى اسبانيا الاسلامية هذه تنتهى رحلة قوافل التجارة التى كانت تربط روسيا بجنوب غربى القارة الأوربية •

وفى البحر المتوسط استمر التجار السوريون والأقباط وملاحوهم، الى جانب اليونانيين ، فى نشاطهم التجارى المتواضع منذ القرن الخامس • فنقلوا متاجر الشرق الى الغرب ومنهم من وصل الى أيرلندا • وفى القرن التاسع ضعف نشاطهم واستقر معظمهم فى أوربا • وحل محلهم التاجر الرادانى • والرادانية تجار يهود — تجار البر والبحر بين أوربا وساحل افريقيا وطرق التجارة البرية والبحرية من ساحل آسيا على البحر المتوسط الى سواحلها فى الهند وجنوبى شرق آسيا والصين •

وبعد قيام الدولة العباسية وبناء بغداد كعاصمة لأكبر امبراطورية فى ذلك العصر ، امتد واتسع نشاط الملاحة الاسلامية فى الجنوب من موانى الجزيرة العربية والخليج الى موانى الصين فضلا عن امتدادها الى سواحل البحر الأحمر وشرق أفريقيا • ومنها كلها تصل المراكب المحملة بسلع الجنوب الى سيراف والبصرة ومنها الى بغداد • وبفضل هذه الدورة الملاحية المنتظمة أصبحت بغداد — الى جانب القسطنطينية — أكبر سوق تجارية فى الشرق ، ان لم تكن فى العالم كله ، فى القرنين التاسع والعاشر • وقد نجح فى دعم هذه الدورة الملاحية التجارية تجار مغامرون مكافحون ، وملاحون مهرة تمرسوا على استخدام الرياح الموسمية ، وحكومات اهتمت بنشر الأمن حتى أصبحت البصرة أهم ميناء فى الجنوب •

فى ذلك الوقت والى عهد الخلافة الفاطمية وبناء القاهرة لم تكن

مصر مركز الثقل فى الشرق الاسلامى . كما لم يكن البحر المتوسط مركز النشاط التجارى الضخم فى العالم فى ذلك الوقت . على أى حال احتفظت مصر فى ذلك الوقت بعلاقاتها التجارية مع بيزنطة وأوربا فى فترات السلم الطويلة . واستفادت مصر من انتظام القوافل البرية بين بغداد والمغرب والحجاز ، حيث كان موسم الحج أهم موسم تجارى للمسلمين فى العالم الاسلامى كله . كما وصلت قوافل التجارة المصرية الى طرابزونة على ساحل البحر الأسود ، طرابزونة ـ تلك السوق البيزنطية التى استقبلت أيضا تجار العراق وايران ووسط آسيا ، فضلا عن تجار مملكة الخزر .

وفى القرن العاشر أو على وجه الدقة ، فى النصف الثانى من القرن العاشر بدأت معالم الصورة السياسية العامة فى البحر المتوسط وفى غرب آسيا تتغير ، وبرزت مصر لتحتل مكان الصدارة فى علاقات الشرق والغرب . فقبيل نهاية القرن العاشر أو فى بداية القرن الحادى عشر انهارت الدولة السامانية تحت ضربات الأتراك (الغزنوية والقرخانية) ، وانهارت دولة البلغر أمام هجرة أو هجرات الروس الوافدين من شبه جزيرة اسكنديناوة والدانمرك . كما انهارت مملكة الخزر أيضا . بل لقد حاول هؤلاء الروس الاستيلاء على القسطنطينية. هؤلاء الروس أو النرمنديون هم الذين قاموا بغارات نهب على سواحل أوربا الغربية ووصلوا الى الأندلس وعرفوا فى المصادر العربية باسم المجوس . ولقد حملت غاراتهم وهجماتهم الأمويين على بناء أسطول يحمى شواطئهم . ضعف شأن هذا الأسطول الحربى قبيل تولى عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس (٩١٢ـ٩٦١) . فأعاد بناءه وزاد فى عدد قطعه والتحم مع أسطول الفاطميين فى شمال افريقيا وصقلية فى أكبر معركة بحرية فى وسط البحر المتوسط عند ميناء مازرة أو مزارة ـ وهو ميناء صقلى على الساحل الغربى للجزيرة . هنا التقى أضخم أسطولين فى غرب البحر المتوسط . انتهت المعركة بتحطيم الأسطول الفاطمى وانتصار أسطول الأندلس . وأهم النتائج التى ترتبت على

هزيمة الفواطم وكان لها أثرها الواضح فى سياسة مصر التجارية هى تركيز الخلافة الفاطمية على فتح مصر ، ونقل العاصمة اليها ، وتدعيم مركزها فى الشرق الأدنى ، ووضع افريقيا وصقلية تحت ادارات تابعة لها • وبهذا نصل الى النتيجة التاريخية لهذه الأحداث وهى النتيجة التى لا يمكن اغفالها عندما نتكلم عن سياسة مصر التجارية • لقد انتهج الفاطميون سياسة جديدة بعد نقل عاصمتهم الى مصر : لم يشتركوا مشاركة جدية فى استكمال فتح صقلية ، واهتموا بدعم الصلات التجارية السلمية مع الجزيرة • فكانت أساطيلهم التجارية وسفن بعض كبار موظفيهم تغادر موانيهم فى مصر وسوريا لتتنقل بين عدد من موانى البحر المتوسط وخاصة فى جزيرة صقلية • فليس غريبا اذا أن نرى فى القاهرة نفسها — أى على عمق دلتا النيل كلها — نرى تجار أما لفى وغيرهم يتعاملون ، وقد منحتهم الحكومة الفاطمية بعض الامتيازات تشجيعا لهم على استمرار العلاقات السلمية والتبادل التجارى •

وسياسة الفاطميين فى منطقة البحر الأحمر تهدف الى دعم علاقاتهم مع مركزهم فى اليمن ، والى تغلغل دعاتهم الى الساحل الغربى للهند — كل هذا كان من شأنه تنمية مجال التبادل التجارى مع مصر • ولكن الأهم بالنسبة لتجارة مصر فى ذلك الوقت هو ما وقع فى قلب العراق ، مركز الخلافة العباسية : قلة الاستقرار السياسى ، عدم استتباب الأمن ، ضعف الادارة ، وهبوط دخل الخليفة بحيث لم يعد قادرا على تغطية مصاريف جهازه الحكومى ودفع مرتبات جنده • كل هذا قد دفع التجار الى تجنب الخليج ، كل هذا أدى الى ما سماه جغرافيو العرب فى ذلك الوقت بـ « خراب بغداد » • استفادت عدن من هذا كله عندما بدأ كبار التجار وأصحاب السفن يتحولون عن بغداد والبصرة ليركزوا نشاطهم فى عدن • وبذلك ارتبطت أهم طرق الملاحة فى مياه الجنوب بمصر ارتباطا وثيقا — من ساحل الصين الى عدن ، ومن عدن الى موانى مصر فى البحر الأحمر ، وأهمها ميناء عيذاب الذى بناه الفاطميون •

وفى نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر وقعت أيضا تطورات ملاحية هامة : استعمال البوصلة وشراع السفن المعـــروف بالشراع اللاتينى فى البحر المتوسط ، وكلاهما تجديد ملاحى خطير الشأن ، نقله المسلمون من المحيط الهندى الى البحر المتوسط . هــذا التجديد أحدث أثره — ليس فقط فى بحار الجنوب ، بل أيضا فى البحر المتوسط — فيما بعد — ، ليس فقط فى تقليل مخاطر الملاحة وتأمين السفن وحياة ملاحيها وتجارها ، بل أحدث فوق ذلك أثره فى ظهــور دورة ملاحية تجارية جديدة ومواسم منتظمة على مدار الســـنة . انتظمت الملاحة اذن ودخلت تجارة البحر المتوسط مرحلة جديدة : لم تعد التجارة فيه تجارة ساحلية كما كان الحال من قبل ، عندما كانت المراكب تسير فى محاذاة الساحل وعلى مقربة منه تجنبا لكل ما ينذر من مخاطر . ولم تعد حلقات المزايدات التى تقام فى الميناء للتجارة السريعة ، لانهاء عمليات البيع والشراء ودفع الضرائب وتموين السفينة ، ثم الاقلاع فورا الى المرسى التالى — لم يعد كل هذا هو دستور التجارة والملاحة . وقع تطور جديد يحدد معاملات التجار على أسس ثابتة / الدولة المضيفة تقبل نزول تجار المدن الايطالية الصديقة الى العاصمة — الى القاهرة — وتمنحهم حق الاقامة لتأدية عملهم وممارسة الاتجار ، أى تصريف سلعهم دون لهفة أو قلق . ثم شراء ما يحتاجون اليه من سلع لتصريفها فى أسواق مدنهم الأوربية . كانت أهم هذه السلع هى توابل الشرق، وأقمشة الشرق والغرب ، والمواد الغذائية والحبوب ، وفوق ذلك كله الأسلحة ومواد التسليح — وأهمها الحديد والخشب . كما تبدت فى الأفق التجارى ظاهرة لا يمكن اغفالها فى هذا المجال — ألا وهو التاجر الاسلامى الكبير ، الذى يركز نشاطه على الاتجار مع المدن الايطالية .

ولكن هذه المدن الايطالية تمثل ظاهرة جديدة فى تاريخ حوض البحر المتوسط . انها مدن حرة . مدن اســـتطاعت أن تثبت وجودها فى الغرب ، وأن تستفيد فائدة كبرى من وراء الصراع الذى شــغل به الفاطميون فى المغرب والأمويون فى الاندلس — ذلك الصراع الذى

أنتهى بانتصار أسطول عبد الرحمن النـــاصر إنتصارا ساحقا عـــلى الفاطميين ، ورغم ذلك فلم تعقبه انتصارات أخرى أو سياسة مستتبة لتحقيق سيادة بحرية اندلسية فى غرب البحر المتوسط • فما أن بدأ القرن الحادى عشر حتى وجدنا سفن هذه المدن تتردد على ســواحل المغرب وتمخر عباب خليج مسينا وبحر الادرياتيك باحثة عن الأسواق الجديدة فى الجانب الآخر ، بعد أن أتيحت لها فرصة ذهبية أخـــرى ، ألا وهى نجاح الاسرة المقدونية البيزنطية فى استعادة جزيرة كريت عام ٩٦١ ، والسيطرة على الطريق الملاحى بين القسطنطينية وبين موانى شرق المتوسط • ولكن بيزنطة كانت تعانى من مشاكلها الداخلية ، ومن الصراع مع صقالبة الجنوب على السيادة فى جنوب شرق أوربا والبلقان • ولم يقو اليونانيون على منافسة الايطاليين فى مجال التجارة البحرية • معنى هذا كله فى جملة تاريخية واضحة : ان الفراغ الذى نجم عن الصراع البيزنطى العربى ، ثم الصراع الفاطمى الأموى فى حوض البحر المتوسط قد ملىء بقوة جديدة : التجار الايطاليون والمدن الايطالية الحرة ، التى اهتمت بالتجارة وببناء السفن وتحسينها وايجاد أو فتح أسواق جديدة للتجارة فى حوض البحر المتوسط كله • وكان أهم هؤلاء التجار الذين اصطلح مؤرخو العصر على تسميتهم بتجار الفرنج هم البنادقة والجنوية والبيازنة من البندقية وجنوه وبيزا • ثم تلاهم فى فترة لاحقة المراسلة ، أى تجار ميناء مرسيليا الفرنسى ، والبراشنة ، أى تجار برشلونة ميناء اسبانيا •

فالعميل الجديد فى الشرق الاسلامى عندما بدأت الحركة الصليبية عميل طموح ، تشابكت مصالحه مع مصالح الصليبيين أحيانا ، وتناقضت معها أحيانا أخرى •

النقطة الثانية : فالنقطة الثانية اذن يجب أن تكون عن مصـــر نفسها ، بعد أن درسنا الاطار العام لمسالك التجارة ومقوماتها الجديدة •

عندما وصل الصليبيون الى الأراضى المقدسة كانت مصر الفاطمية قد تخلت عن سياستها فى قسر التجارة مع سفن الغرب على بعض الموانى الساحلية وسمحت لتجار الفرنج بدخول القطر والاتجار بالقاهرة ، كما ذكرت لكم من قبل .

والواقع أن مصر لم تعمل بهذه السياسة الا فترة قصيرة محدودة عادت بعدها الى التقليد القديم ألا وهو حصر نشاط التعامل الخارجى على أرضها على موانى مصرية محددة فتحت أمام التاجر الأجنبى ، وأهم تلك الموانى — الاسكندرية ودمياط .

هذا التحول جدير بأن يلقى شيئا من عنايتنا لأنه مرتبط بالصراع الذى دار حول الأراضى المقدسة ، وعلى حدود مصر ، واتسع مداه حتى شمل سواحل البحر المتوسط كلها . عام ١١٥٤ أرسلت بيزا سفيرا الى القاهرة ، الى الخليفة الظافر (١١٤٩ — ١١٥٤) لاعادة بناء العلاقة بين البلدين ، وللحصول على موافقة الحكومة على تخصيص فندق بالقاهرة للتجار البيازنة . لقد أبدت مصر استعدادها لقبول الفكرة ، ولكن بيزا لم تحصل على هذا الفندق فى العاصمة — لا فى عهد الظافر ، ولا فى عهد من تلاه على حكم مصر . فقد اشتركت بيزا فى الصراع الذى دار بين الصليبيين وأتابكة الموصل وحلب للاستيلاء على مصر أملا فى تحقيق مطامعها التجارية بالحصول على ربع مدينة القاهرة وربع مدينة الفسطاط . انتهى هذا الصراع الذى امتلأت به الحوليات خلال الستينات من القرن الثانى عشر — انتهى بنجاح نور الدين زنكى ورجليه فى مصر — أسد الدين شيركوه وصلاح الدين — وبطرد الصليبيين من مصر . فحقق بذلك نصرا ضخما بعد القضاء على امارة الرها الصليبية . والجدير بالذكر أن بيزا بدأت مفاوضاتها مع صلاح الدين عام ١١٧٣ بعقد معاهدة تجارية جديدة . فى هذه المعاهدة الجديدة لم تحصل بيزا على فندق فى القاهرة ، بل ولم يذكر شىء من هذا القبيل فى المعاهدة . وفى عام ١١٧٤ عقدت البندقية معاهدة أخرى

لم تنل فيها أى امتياز فى القاهرة . فما مغـــزى هذا كله ؟ أدرك صلاح الدين خطر التلاحم بين المصالح التجارية وبين حركة التوسع الصليبية فى المنطقة وعبر عن ذلك فى رسالته للخليفة العبـــاسى عندما وصف البنادقة والبيازنة والجنوية بأنهم « تارة يكونون غزاة ... وتارة يكونون سفارا (أى تجارا) »[1] .

ولا يمكن أن نغفل ونحن بصدد دراسة مراحل تبلور سياسة مصر التجارية مدى يقظة صلاح الدين وحكومته الى هذا الخطر من الجانب الآخر : استولى الصليبيون على ميناء العقبة أو أيلة على خليـــج العقبة بعد ستة عشر عاما من استيلائهم على القدس أى فى عام ١١١٦. وقد استعاده صلاح الدين عام ١١٧٠ ،أى قبل أن يقضى على الخلافة الفاطمية ويؤسس الأسرة الأيوبية عام ١١٧١ . هنا لابد أن نتمسك بملاحظتين :

الأولى ــ أن الصليبيين احتفظوا بالعقبة مايقرب من خمســة وخمسين عاما ، ورغم ذلك لم يكونوا من القوة بحيث يمكنهم تحقيق أى نشاط تجارى فى البحر الأحمر .

والثانية ــ أن صلاح الدين قد أدرك مدى خطورة احتفـــاظ الصليبيين بمثل هذا الموقع الاستراتيجى الحيوى على البحر الأحمر. فقام بالاستيلاء عليه ودعم بذلك مركز مصر والتجارة المصرية فى البحر الأحمر . وليس أدل على حسن تقدير صلاح الدين من أن نذكر بأن الفارس Renaud de Chàtillon الذى قام بأكبر مغامرة فى تاريخ الحروب الصليبية قد تغلغل عام ١١٨٢ بسفنه التى نقلها قطعا على ظهور الجمال من شرق الأردن الى خليج العقبة . ثم استولى على أيلة ومنها أبحر الى عيذاب وغيرها من الموانى الواقعة شمالى جزر

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، القاهرة ، جـ ١ ص ٢٣٤ .

دهلك ، فهاجمها ونهبها وأشعل النيران في بعضها • هزت هذه الحادثة العالم الاسلامى الذى أبدى استنكاره لتجرىء هذا الفـــارس على الاقتراب من المواقع المقدسة فى الجزيرة العربية والتعرض لمصـــالح المسلمين التجارية فى البحر الأحمر • فى هذه الحملة الفريدة نهـب أسطول de Chàtillon فيما نهب ،/ميناء عيذاب (فى بلاد البجة) — أهم ميناء مصرى فى حوض البحر الاحمر • عام ١١٨٣ حاول رحالة الأندلس المشهور ابن جبير أن يحصى عدد جمال القوافل المارة بين عيذاب وقوص ، فما تمكن لكثرة عددها • باءت محاولة de Chàtillon بالفشل — فكانت آخر محاولة للصليبيين فى البحر الأحمر •

صلاح الدين كان قد أكد سيادة مصر فى اليمن من قبل عندما أرسل حملة بقيادة أخيه تورانشاه عام ١١٧٤ للاستيلاء على اليمن • نجحت هذه الحملة فى ضم اليمن الى الامبراطورية الأيوبية • وكان من خصائص الحكم الجديد وضع نظـام جديد للضرائب فى اليمن ، وخاصة بالنسبة لموانيها وتجارتها الصادرة والواردة • وهو نظـــام مأخوذ عن نظام الضرائب فى مصر • مصر اذن سيطرت على أهم الطرق التجارية وأقصرها بين الشرق والغرب — من الموانى المصرية على ساحل البحر المتوسط الى موانى اليمن وأهمها عدن • كما امتدت حـــدود الأيوبيين فى الجنوب الى النوبة ، وشملت فى الشمال سوريا كلها ، ما عدا « الدويلات » أو « الامارات » الصليبية التى تلقت ضربة قاسية على يد صلاح الدين وجيوشه فى موقعة حطين المشهورة عام ١١٨٧ • وبعد هذه الموقعة تبددت آمال الصليبيين فى الأراضى المقدسة • فبعد أن تشتت شمل الحملة الصليبية التى قادها الامبراطور فردريك بربروسا قبل وصولها الى فلسطين ، ركزت الصليبيات مرة أخرى على الاستيلاء على مصر بعد أن اتضح لهم أن مصر حجر الزاوية فى الجهـــاد الاسلامى والسوق الأكبر فى المنطقة ، رغم العلاقات التجارية بين جمهوريات الغرب وموانى الصليبيين على ساحل الشام • اتجهت الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة الى القسطنطينية ، بدلا من الاتجـاه الى

مصر – تحقيقا لأطماع البندقية فى الشرق • فوضت الحملة أركان الامبراطورية البيزنطية وأقامت امبراطورية لاتينية ضعيفة (١٢٠٤– ١٢٦١) • أما البندقية فقد نجحت فى تكوين امبراطورية تجـــارية تتألف من الموانى والجزر التى تدعم مصالحها من البحر الأسود الى بحر الادرياتيك / ومن الناحية الأخرى عززت البندقية بنفس الضربة مركزها فى مصر واستطاعت أن تحصل على فندق ثان فى الاسكندرية ، وأصبحت بذلك أهم شريك لمصر فى تجارة التوابل بين الشرق والغرب• ولعل موقف البندقية من الصليبية الرابعة هو خير مثال على بروزعقلية جديدة يرمز اليها المثل البندقى المشـــــهور :

« Siams Veneziani poi Christiani »

« نحن بنادقة أولا ومسيحيون ثانيا أو بعد ذلك » وصلت الحملة الصليبية التالية الى مصر ومنيت بالهزيمة • وعطلت الحرب انتظـــام العلاقات التجارية ، ولكن الى أجل محدود • وفى صليبية القـــديس لويس تتكرر المأساة رغم اختلاف التفاصيل • ولكن الظروف التاريخية لهذه الصليبية تحملنا على التوقف للتأمل فى أبعادها ، وفى ظهـــور عامل جديد فى الصراع على الأرض والتجارة • كان المفروض أن يتجه لويس التاسع بحملته الى مصر من البحر بينما تنصب جحافل المغول فى بقاع الشام ، فيضطر الأيوبيون الى الحرب فى جبهتين ، وبعد اكتساح سوريا يسحق جيش مصر بين شقى الرحى • لم تخرج هذه الخطة الى حيز التنفيذ • والتقت جيوش مصر بأكبر جيش أوربى هاجم مصر فى العصور الوسطى • وانتصرت • ليس هذا هو كل ما يهمنا أن نعرفه عن صليبية القديس لويس • لقد عجلت هذه الحملة بانهاء حكم الأيوبيين فى مصر ، أى أنها عجلت أيضا بوصول جيشهم من المماليك الى السلطة • وبعد مواجهة الخصم الثانى وهم المغول فى عين جالوت والانتصار عليه عام ١٢٦٠ ثبت المماليك حكمهم فى الشرق الأوسط • وعندما انتقلت الخلافة العباسية الى مصر عام ١٢٦١ ارتفع جاه مصر فى العالم الاسلامى كله •

مصر أصبحت اذن ملاذ علماء الاسلام ، أصبحت مركز الحضارة الاسلامية ، وأمل العالم الاسلامى فى دفع خطر المغول • وبذلك نصل الى النقطة الثالثة فى هذه المحاصرة وهى المغول ومصر وسياسة مصر التجارية •

النقطة الثالثة :

تعد امبراطورية المغول أكبرامبراطورية فى القرن الثالث عشر ومن أكبر الامبراطوريات فى تاريخ العالم • وكان لانتصار المماليك عليهم فى عين جالوت أكثر من نتيجة • هناك مثلا نتيجة حضارية على جانب كبير من الأهمية : نهر الفرات أصبح الخط الذى يفصل ، أو يكاد يفصل، بين شطرين أساسيين للحضارة الاسلامية : الحضارة الايرانية الاسلامية والحضارة العربية الاسلامية • هناك نتيجة أخرى : مصير دولة سلاجقة الروم (أو سلاجقة الأناضول كما يسميها المؤرخون الأتراك اليوم) ظهور هذه الدولة ، كما نعلم ، من أكبر الانتصارات الاسلامية : بعد انتصار السلاجقة فى موقعة ملاذكرد العالمية بقليل أسس السلاجقة هذه الدولة فى قلب الامبراطورية البيزنطية فى آسيا ، وبعد انتصار سلاجقة الروم على جيوش بيزنطة فى موقعة Myiokephalon سنة ١١٧٦ أصبح الحكم الاسلامى فى آسيا الصغرى حقيقة تاريخية ثابتة وأصبحت آسيا الصغرى جزءا لا يتجزأ من المجال التجارى للعالم الاسلامى بما فيه مصر •

هذه الدولة السلجوقية ، دولة الثغور والحدود أمام بيزنطة ، ينقض عليها المغول عام ١٢٤٣ فى معركة تاريخية مشهورة — معركة Kösedagh (بالقرب من سيواس) • يهزم سلاجقة أناضوليا فى هذه المعركة هزيمة منكرة ، وتصبح آسيا الصغرى منطقة من مناطق الامبراطورية المغولية ، وتتمتع بيزنطة بما يشبه الحماية المغولية • ويترتب على عجز السلاجقة ظهور امارات المجاهدين الأتراك ، مثل كرمان وغيرها — من هذه الامارات امارة آل عثمان فى بورصة •

ومن نتائج التوسع المغولى التى لا يمكن اغفالها هجرة التجار من بغداد قبيل عام ١٢٥٨ وبعده فرارا من غارات المغول • هاجر هـؤلاء التجار ومعظمهم من المسايمن الى ميناء قاليقوت على ســـاحل الملبار الذى أطلق عليه فيما بعد ساحل الفلفل • كان حكام قاليقوط من الهنود، ولم يكونوا من المسلمين ولكن أصحاب النفوذ فى هذا الثغر كانوا التجار المسلمين الوافدين من بغداد ، الذين تمتعوا بامتيازات عديدة ، وحكموا علاقاتهم التجارية بتقاليدهم وقانونهم • وأهم من ذلك ، أنهم تمتعوا بحق التمثيل التجارى • بفضل هؤلاء التجار المسلمين الذين هاجروا من بغداد الى قاليقوط أصبح هذا الميناء المتواضع أو أصبحت هذه القرية الصغيرة خلال فترة قصيرة أهم ميناء لتجار الشرق فى مياه الجنوب ، وأهم مركز للتبادل الاسلامى الصينى الأندونيسى فى الهند • وهنا لابد لنا أن نذكر الصين المغولية • المغول حكموا الصين أيضا (أسرة Yüan) • وللمسلمين تقاليد تجارية عريقة فى الصين ، وفى ساحل الصين بالذات ، نذكرها حين نذكر كانتون والخنسا وغيرهما من موانى الصين • أباطرة الصين من المغول حافظوا على السياسة الصينية فى تشجيع تجار المسلمين الذين أصبحوا الشركاء الأول فى بناء الاقتصاد الصينى فى مجال التجارة • أباطرة الصين المغول حاولوا فتح اليابان وضمها الى امبراطوريتهم • فشلوا فى هذه المحاولة ، ولكنهم نجحوا فى القضاء على القرصنة اليابانية الى حد كبير • أباطرة الصين من المغول حاولوا الاستيلاء على سيلان ، ولم يوفقوا • وهنا نلاحظ أن المد الصينى يصل الى منتصف المحيط الهندى • ما معنى هذا بالنسبة للتجارة وبلغة التجار ؟ وما جد من تطور فى الملاحة وصناعة السفن حتى امتد نشاط الصينيين تحت سيادة المغول الى سواحل الهند الغربية، الى ساحل الملبار • فى الواقع أخذ ملاحوا الصين عن ملاحى العرب والفرس والهنود — أخذوا عنهم كيف يستغلون الرياح الموسمية فى المحيط الهندى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، كما أخذوا عن

سكان موانى الهند الصينية كيف يبنون السفن الضخمة المعروفة بالجنك (Junk) والتى وصـــــفها لنا ماركو بولو فى القرن الثالث عشر ، وابن بطوطة فى القرن الرابع عشر • ووصف ابن بطوطة للجنك وصف رائع يستمتع به كل من قرأ رحلته • كان الجنك يحمل ما يزيد على خمسمائة مسافر • وكان الجنك يحمل بالبضائع الثقيلة أيضا • معنى هذا بلغـــة الضرائب زيادة دخل الدولة ، وبلغة التجار زيادة فى حجم التجـــارة وتداول السلع ورخاء السلعة ، أى اعتدال سعرها •

بهذا نصل الى الملاحظة الأخيرة فى هذه النقطة ــ عصر المغـــول وأيجابيات هذا بالنظر فى تاريخ المحيط الهندى وبحار الجنوب : خطوط الملاحة فى الجنوب تمتد من سواحل الصين الى سواحل الهند الصينية وسواحل مملكة سريفيجايا (أو شرى ، أو سريرة) ، وبعـــدها مملكة Màqapahit ، الى ســـيلان وجزر المالديف وسواحل الهند الشرقية والغربية ثم الخليج حيث نلتقى عند مدخله بأهم ميناء لايران المغولية وهو ميناء هرمز ، ثم موانى الجزيرة العربية وأهمها عدن • ومن ساحل شبه الجزيرة العربية وأهمها عدن • ومن ساحل شبه الجزيرة الجنوبى وموانى سيلان والماديف تبدأ خطوط الملاحة الى ساحل شرق أفريقيا وأهم موانيــه مقدشـــو وكلوه ومختلف موانى ســـاحل الزنج وسفالة • لاشـــــك فى أن العـــرب قد وصـــلوا الى رأس الرجاء الصـــالح ، أو رأس العواصف ، بحثا عن الذهب • وعندما افتقدوه أهملوا الرحلة اليه • ولكن ما علاقة ساحل الزنج وسفالة بالمغول وامبراطوريتهم وهو موضوع هذه النقطة من هذا البحث ؟ ظهـــور قاليقوت يرجـــع الى الهجرة من بغداد وارتفاع أهمية ساحل الزنج يرجع أيضا الى هجرات المسلمين من مناطق الخليج فى أعقاب الهجوم المغولى فى أواسط القرن الثالث عشر • وكما اتصلت تجارة مصر وسياستها التجارية بقاليقوت و« دول أندونيسيا » ، اتصلت تجارة مصر بسواحل شرق افريقيا •

بذلك إكتملت الخطوط الرئيسية فى صورة المحيط الهندى ومياه

الجنوب وخطوط الملاحة من ساحل الصين الى ساحل الزنج ومن عدن والبحر الأحمر حتى مصر وساحلها على البحر المتوسط •

فالى النقطة الرابعة النظرة التاريخية للتطور فى حوض البحر المتوسط ابان سيادة المغول فى آسيا •

« مصر مجمع قارتين افريقيا وأوراسيا ، ومفرق بحرين — البحر المتوسط وبحر القلزم » ، ومصير تجارة مصر وخطوط سياستها التجارية مرتبط ارتباطا وثيقا بهذه الحقيقة المعروفة فى الجغرافيا التاريخية •

لعبت سياسة المغول دورا هاما فى تاريخ العلاقات التجارية والسياسات التجارية على السواء • السياسة العامة للمغول بنيت على أساس فتح أبواب التجارة والطرق التجارية للجميع • فتح المغول الطرق الاسيوية من حدود امبراطورية المغول فى روسيا (القفجاق) على البحر الأسود أو من ميناء أياس — ميناء أرمينية الصغرى فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى — ، للوصول الى تبريز وبغداد فالخليج ، فساحل المابار ، ومنه الى جنوب شرق آسيا والصين • ومن تجار الغرب من عبر مع القوافل من سواحل البحر الأسود أو تبريز الى وسط آسيا فحائط الصين • ومن حدود الصين هناك وصل تجار الفرنج الى سواحل الصين • وهناك — فى الميناء المشهور كانتون — اتصل تجار الغرب بتجار الكارمية : أهم التجار المسلمين • فتح هذا الطريق البرى بين البلاد المنتجة للتوابل والمصدرة لسلع الشرق — فتح هذا الطريق للغرب فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر مما أنعش آمال البابوية ودعاة الحركة الصليبية فى استغلال هذه الطرق الاسيوية ، وفى قسر الاتصال التجارى بين جمهوريات الغرب التجارية والشرق عليها دون غيرها ، أى وقف الاتجار مع مصر مما يترتب عليه انهيار الطريق التقليدى بين البحر المتوسط والمحيط الهندى عن طريق مصر والبحر الأحمر — وهو الطريق الذى تشرف عليه مصر اشرافا تاما محكما • بدأت هذه الفكرة تتبلور فى صورة

دعاية قوية ، وخرجت فعلا الى حيز التنفيذ ، خاصة وأن العلاقات بين الغرب والمغول قد أصبحت علاقات ودية يعتمد عليها ، الى درجة ارسال سفارة مغولية الى بلاط الملك المفرنسى فى باريس • وأخذت البابوية تفرض العقوبات على من يتاجر مع مصر وسوريا • ومن الجدير بالذكر فى هذا المجال أن علماء الاسلام فى هذه الفترة قد نادوا أيضا بوقف الاتجار مع الغرب •/وعلى الرغم من هذا كله فان الطريق التقليدى للمواصلات والملاحة والتجارة الخاضع لاشراف مصر لم يفقد أهميته • على العكس احتفظت الطرق التجارية بين ساحل الصين وموانى الهند الصينية ودول جنوب شر قآسيا وسواحل الهند وسيلان وشرق افريقيا التى تصب جميعها فى ميناء عدن (الذى خضع للدولة الرسولية التى حافظت على ولائها لمصر رغم بعض المشاكل السياسية) احتفظت بنشاطها التجارى كما حافظت عدن على دورها التجارى أمام الميناء المنافس فى مجال التجارة الدولية ـ ميناء هرمز عند مدخل الخليج• زادت حدة المنافسة بين عدن وهرمز • هذه المنافسة أدت الى زيادة حجم التجارة فى عدن ، وبالتالى الى زيادة المتاجر التى تصل الى عيذاب ، فقوص ، فأسواق القاهرة الكبرى وفنادقها ومنها الى الاسكندرية • هذا نجاح أول وحاسم فى معركة المنافسة •

ـ أما النجاح الثانى فظهر على شكل رد فعل لموقف دولة المغول فى ايران عندما عرقلت وصول سفارة الى مصر عن طريق هرمز والعراق فى بداية الثمانينات من القرن الثالث عشر • كان احتجاج مصر احتجاجا عمليا يدل على عقلية تعطى المسائل الاقتصادية حقها من التفكير النظرى والعملى فى وقت واحد • أصدرت مصر نوعا من جواز الامتياز التجارى اهتمت بتوزيعه على كبار تجار الجنوب والمحيط الهندى وأكدت فيه أن من يملك هذا الجواز له الحق فى الحصول على تخفيضات فى الضرائب وعلى تسهيلات عديدة فى عمليات الشحن والتفريغ • وعلى تمسك الحكومة بحماية النفس والمال ، وفوق ذلك كله أكدت أنها على استعداد لشراء كل مايصدره تجار الجنوب اليها ـ كل هذه خطوات ايجابية لاشك فى فعاليتها الايجابية •

النجاح الثالث ــ مصر راقبت التطور السياسى فى امبراطورية المغول الضخمة • وسرعان ما أيقنت أهمية تقسيم هذه الامبراطورية فى تدعيم مصالحها التجارية والسياسية أيضا • وباستبعاد الصين التى كان لها وضع تاريخى خاص انقسمت أو قسمت امبراطورية المغول الى دولة المغول فى وسط آسيا ودولة المغول فى ايران ودولة المغول فى روسيا بالاسلام وبدأوا فى اعتناقه ، فبادرت مصر الى تدعيم هــذا التحول الخطير وأخذت ترسل الهدايا والعلماء والخطباء الى مســاجد سراى ــ العاصمة • كما اهتمت بدعم علاقات الصداقة ببلاط هؤلاء المغول وبمصاهرة البيت الملكى المغولى ، وبالتوسط فى المشــاكل التى ظهرت بين مغول روسيا وبيزنطة ومغول ايران • هذا نجاح لا يمكن التجاوز عنه أو التقليل من أهميته • وبهذا النجاح حافظ المماليك على المصالح المصرية • وفى الوقت نفسه قاموا بتشجيع تجارة الرقيق • فجيش المماليك قام على ما كان يصل الى مصر من الرقيق الأبيض الذى يخرج على السفن الجنوية من موانى البحر الأسود ويمر بالبسفور والدردنيل ليصل الى موانى مصر على ساحل البحر المتوسط ، وأهمها الاسكندرية ودمياط • هذا هو النجاح الثالث للسياسة المصرية فى تلك الفترة الحرجة •

أما النجاح الرابع فهو انهاء حالة الحرب بين مصر ودولة المغول فى ايران أو دولة الايلخانات ، وذلك فى العشرينات من القرن الرابع عشر • ظلت الحرب سجالا بين مصر المملوكية وايران المغولية لمدة تزيد على نصف قرن بعد انتصار المماليك فى عين جالوت عام ١٢٦٠ • تبدل الموقف عندما نجح الاسلام فى تثبيت مكانته فى بلاط مغول ايران فى العشرينات من القرن الرابع عشر ، وعندما نجح تاجر مسلم كبير كان يتردد بين ايران ومصر فى تحقيق السلام بين البلدين • اسم هذا التاجر المجد السلامى الذى منحه السلطان الناصر محمد بن قــلاوون بعد أن توصل الى عقد معاهدة السلام منحه بعض الممتلكات والامتيازات وأهمها اعفاء تجارته من الضرائب أو من أكثرها • عقدت معاهدة الصلح

مع ايران سنة ١٣٢٣ وانتظم بعدها سير القوافل البرية بين الصين وايران والعراق وسوريا ومصر ٠

هذ النجاح الرابع ينقلنا الى النجاح الخامس وهو يتمثل فى مواجهة خطر وجود أرمينية الصغرى وخطر ميناء أياس على الاسكندرية فى هذه المنافسة التجارية بين الشرق والغرب ٠ اتجه سلاطين المماليك الى اخضاع أرمينية الصغرى لنفوذ مصر لمواجهة أى احتمال لتعاون الفرنج والمغول عسكريا ، هذا الى جانب تصميمهم على القضاء على بقايا أملاك اللاتين على ساحل الشام ٠ وبلغ هذا النجاح ذروته عام ١٢٩١ ، عندما استولت مصر على آخر معقل صليبى : عكا ـ عكا التى عاشت تحت السيطرة الفعلية للجمهوريات التجارية لمدة تزيد على خمسين عاما قبل فتحها ، ومع ذلك لم تتمكن من اضعاف مركز الاسكندرية التجارى ٠ خربت عكا عام ١٢٩١ أى خرب المماليك معاقلها حتى لا يفكر الفرنج فى فتحها مرة أخرى ٠ معنى ذلك أن مصر بعد فتح عكا ، وبعد عقد الصلح بين ايران المغولية ومصر المملوكية لم تتعجل الاستيلاء على أياس بعد أن اتضح أنها لا تمثل خطرا فى حركة التبادل بين الشرق والغرب عن طريق مصر ٠ ودليلنا على ذلك أن مصر أهملت مشروعها فى بناء ميناء على ساحل سوريا الشمالى لينافس أياس بعد عقد معاهدة الصلح مع ايران المغولية ـ معنى هذا كله أن الاسكندرية قد أصبحت منذ العشرينات من القرن الرابع عشر سوق الشرق والغرب وأهم ميناء للتبادل على طول الساحل الاسلامى من سواحل آسيا الصغرى الى تونس ٠

وعندما نسمع اسم تونس فلابد لنا أن نتذكر مدى أهمية سياسة مصر التجارية بالنسبة للقارة الافريقية التى أصبح ساحلها على البحر المتوسط من أهم مراكز الصراع بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، وخاصة بعد استيلاء النرمنديين على صقلية وجنوب ايطاليا فى القرن الحادى عشر ، وبعد محاولتهم القصيرة الأمد للاستقرار فى

ساحل تونس وليبيا • نذكر قيام دولة المماليك عام ١٢٥٠ • ونــذكر جهودهم فى دفع خطر المغول عن مصر بانتصارهم فى موقعة عين جالوت

سنة ١٢٦٠ • وبهذا النصر دفعت مصر خطــر المغول عن القارة الافريقية أيضا • وهذا نجاح خامس لسياسة مصر التجارية فى العصور الوسطى• وهو نجاح مبهر يستحق منا نظرة أو وقفة خاصة •

افريقيا أو بمعنى أدق مملكة غانة والسودان الغربى الواقع غربى تشاد وكردفان ودارفور وبحر الغزال كانت أو كان أهم مصدر للذهب فى العصور الوسطى • كان ذهب غانة يوزن بما يقابله من الملح وهو أهم سلعة رائجة فى السودان ومصادره الى الشمال من غانة والســــودان الغربى • كان هذا الذهب ، كما كانت تجارته احتكار الملك • وكان أهــم طريق تجارى له هو طريق لمثونة ، ولمثونة من أهم قبائل البربر فى المغرب• هذا بالاضافة الى طرق القوافل المؤدية الى الجزائر وتونس • وبفضــل تصدير هذا الذهب الى البحر المتوسط بدأ صك العملة الذهبية فى عدد من الجمهوريات الايطالية • وفى عصر السلطان الظاهر بيبرس بالذات تفاوضت احدى هذه الجمهوريات مع صاحب تونس للحصول على حــق المرور من ساحل تونس الى تشاد أو غانة أو منابع الذهب • وافق صاحب تونس مبدئيا على عقد معاهدة تقر للغرب بهذا الحق الخطير • وما أن ترامت أخبار هذا الاتجاه الى البلاط المملوكى حتى بعث الظاهر بيبرس بسفارة الى صاحب تونس ينذره فيها بغزو بلاده اذا ما فكر جديا فى عقد مثل هذه المعاهدة مع الفرنج • وبهذا الموقف الحاسم لمصر تراجعت تونس عن اتجاهها • خلاصة هذا كله حافظت الدول الاسلامية على سياســتها التقليدية ، ألا وهو أن حق المرور من الساحل الى داخل افريقيا حــق اسلامى • وفى عصر المماليك أيضا بدأ انتعاش الطريق التجارى بين مصر وواحاتها واقليم تشاد ووسط السودان الى مالى — وهى امبراطورية اسلامية ظهرت فى القرن الثالث عشر لتضم معظم مناطق السودان الغربى • وكما قلت لكم بدأ انتعــاش الطريق التجــارى بين مصر

وامبراطورية مالى وازداد تصدير الذهب الى مصر بعد أن نضب معين الذهب فى وادى العلاقى — أول مصدر للذهب فى تاريخ مصـــــر الاسلامية • كما انتقل طلبة السودان الى القاهرة طلبا للعلم وكانت لهم مدرسة مشهورة فى هذه العاصمة • وجدير بالذكر أن أكبر ملة فى تاريخ امبراطورية مالى — منساموسى — مصر فى طريقه الى مكة المكــرمة لأداء فريضة الحج • وبلغ ما صرفه من الذهب فى القاهرة وما وزعه على الأمراء من الذهب حدا بالغا حتى انخفض سعر الدينار لوفرة الذهب فى العاصمة • سخاء منساموسى اضطره عنــد عودته الى بلاده الى الاستدانة من ثلاثة من كبار تجار امبراطورية المماليــك — أعنى من الكارمية • وعندما لم يرسل منساموسى دينه لأحد هؤلاء الكارمية ، سافر الكارمى بنفسه لاستعادة ماله • ومن سوء حظه أنه مات هناك فى مالى فدفن بها •

نصل الان الى نهاية النقطة الرابعة فى هــذا البحث وهى أبعاد سياسة مصر التجارية والأسواق الجديدة • فاذا بدأنا الآن بافريقيا نجد أن مصر اتصلت بأسواق المغرب والأندلس والسودان الغربى ، فضلا عن النوبة الى ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق • وصلات مصر بالحبشــة صلات تقليدية عريقة • وباستقرار العرب فى سواحل الحبشة والصومال ازداد حجم التبادل التجارى مع الحبشة • كما وصلت سلع مصر والشرق والغرب الى ساحل افريقيا الشرقى والى ساحل الزنج • انتظم التبادل فى المحيط الهند ىوبحر الصين ، وذلك بفضل جهــود الكارمية وسفن الجنك ونواخذة مياه الجنوب •والنواخذة جمع ناخوذاة وهو قبضان المركب وصاحبه وتاجره فى كثير من الأحيان •

المنافسة القوية اذن كانت فى حوض البحــر المتوسط عنــدما أتاحت امبراطورية المغول لتاجر الغرب فرصة التغلغل فى الطـــرق الآسيوية الى سواحل الهند والصين • وكان رد فعــل مصر قويا • والنتيجة : لم تفقد مصر شيئا من تجارتها ، بل زاد حجمها حين واجهت

الغرب بحلول عملية فعالة وبسياسة قوية دافعت عنها • ثم جاءت الفرصة المواتية التى حولت مجرى الأمور فى صالح مصر : لم يكن حكم المغول فى ايران حكما طويل الأمد • ففى الثلاثينات من القرن الرابع عشر ، أو عام ١٣٣٠ بالتحديد ، بدأ انهيار سيادة المغول فى ايران انهيـــارا سريعا • وفى الأربعينات من القرن نفسه أو عام ١٣٤٠ بالتحديد اختل الأمن فى دولة القفجاق فى روسيا ، فاختل معه دولاب الأعمال وكيان الدولة ذاتها •وظلت مصر أقوى دولة فى المنطقة : من البحر الأسود الى المغرب ، فضلا عن مكانتها فى البحر الأحمر والمحيط الهندى • أما عدن والاسكندرية ، فقد أصبحتا من أهم موانى العالم كله • أما عيذاب فقد أخذت تعانى من قلاقل القبائل المجاورة فانتقل مركز الثقل نحــو الشمال ــ الى القصير والطور والسويس •

وبذلك نصل الى النقطة الخامسة التى تتناول العاملين فى التجارة وتعالج نظم الدولة التى تخدم المصالح التجارية وتراقبها ، وأجهزة الدولة التى تقوم بجمع الضرائب وتأدية الخدمات الادارية فى سبيل دعم المعاملات وتوطيد وتوفير الثقة بين المتعاملين من مصريين وشرقيين وغربيين •

فلنبدأ بالتجار ــ تجار الكارمية هم تجار الامبراطورية المصرية فى عصر الأيوبيين والمماليك • هم طبقة فريدة فى تاريخ التجار المسلمين وفى تاريخ الأمبراطوريات الاسلامية • ورغم ما يقال عن افتقـــارنا الى معلومات جديدة عنهم ، ورغم أننا لم نعثر حتى اليوم على شىء من كتبهم التجارية وأهمها دفاتر الحسابات والمعاملات التى عرفها تاريخ التجارة فى العالم الوسيط ، فان ما تحت أيدينا من وثائق ومعلومات يمكننا من تكوين صورة عامة وواضحة عنهم • بداية هذه المعلومات مرتبطـــة بحملة Renaud de Chàtillon حسـ بما ورد فى رسالة صلاح الدين الأيوبى الى الخليـــفة العباسى فى بغـــداد وهو النـــص الذى لابد أن نذكره دائما • يقول نص الرســـالة أن هدف الصليبية ــ ان صح لنا

أن نستعمل هذا المصطلح فى هذا المقام — ، يقول النص ان هدف de Chàtillon هو أن « يمنع الحاج عن حجه ويحول بينه وبين فجه ، ويأخذ تجار اليمن وأكارم (أو كارم) عن ويلم بسواحل الحجاز » • فحماية تجارة الجنوب الكبرى وحماية تجار اليمن وأكارم عدن من أهم مسئوليات مصر فى ذلك الوقت • صدرت هذه الرسالة عام ١١٨٣ • وقبل ذلك بعامين ، أى عام ١١٨١ قبل هؤلاء الكارمية أن يدفعوا لحكومة صلاح الدين ضرائب أربع سنوات كاملة دفعة واحدة • أن يدفع هؤلاء التجار ضرائب أربع سنوات دفعة واحدة دليل لا لبس فيه ولا غموض عن :

أولا — ادراك ووعى وتجاوب واضح بين الدولة وكبار تجارها •

ثانيا — اتساع استثمارات هؤلاء التجار الكارمية وقدرتهم المالية ، قدرة لابد أن تسترعى الانتباه •

والغموض فى النص ينحصر اذن فى نقطة واحدة هى هل جاء الدفع مقدما لسنوات قادمة أو مؤخرا أى لسنوات ماضية • وان كان من السهل أن نرجح أن الدفع كان لأربع سنوات تالية • أما الدافع فيدل على التلاحم بين مصالح الدولة وبين مصالح كبار تجارها • فليس غريبا اذن أن يقوم تقى الدين عمر ، أحد أفراد أسرة صلاح الدين ونائبه فى مصر ، ببناء فندق الكارم على شاطىء النيل فى الفسطاط • والفندق فى العصور الوسطى هو ذروة المؤسسات التجارية والمعاملات الكبرى • ابن الحاج الفقيه المشهور الذى كتب كتاب المدخل فى ثلاثة أجزاء ينصح الناس والمشترين بألا يتجهوا الى الكارمية لقضاء مطالبهم ، لأن تجار الكارمية هم تجار الجملة ، هم تجار الصفقات الضخمة ، وأهم متاجرهم هى التوابل وخامات العطور ، فضلا عن الجواهر • بعد بناء هذا الفندق فى الفسطاط تنافس السلاطين والأمراء والتجار على بناء فنادق الكارم فى أهم مراكز التجارة الضخمة والتخزين وعلى رأسها قوص

والاسكندرية • كما أسس الكارمية بيوتات تجارية فى سـوريا ، كما كان لهم أسواق مشهورة فى الحجاز • أما فى البحر فكانت عدن وتعز وزبيد من أهم قواعد امبراطوريتهم التجارية ، بينما كانت غلافقة من أشهر أسواقهم فى الجنوب وفيها أهم فنادقهم •

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر بدأت قاليقوط بفضل انوافدين عليها والذين أخذوا فى الاستقرار فيها من التجار المسلمين — بدأت قاليقوط تلعب دورا أساسيا فى دورة التجـارة العالميـة • وكان لبيوتات الكارمية مركزها المرموق فى هذا الميناء الهندى • وشق الكارمية طريقهم فى الشرق الأقصى حتى دعموا مكانتهم فى موانى الصين • بل والتقوا هناك بالتجار الايطاليين ، عندما فتح لهم المغول الطـرق الاسيوية ، كما ذكرت لكم من قبل •

ولا يجوز لنا أن ننتقل الى عرض خصائص هؤلاء الكارمية دون أن نشير الى الأزمة الداخلية التى صاحبت انتقال الحكم من أسرة الأيوبيين انى مماليكهم • صاحب هذا الانتقال ثورة عارمة للقبائل العربية التى رفضت الخضوع للمماليك وطالبت بالحكم والسـيادة • وبينما كان الظاهر بيبرس يقضى على خطر منافسيه العرب أحجم هؤلاء الكارمية عن الابحار من اليمن الى عيذاب وانتظروا حتى استقر الأمن وانتصر المماليك • وعندما وصلت سفنهم وفرغت بضائعها لتحملها قوافل الجمال الى قوص لاحظ ابن واصل اهتمام الظاهر بيبرس بتجارة الكارمية وأمن قوافلهم حين سجل أنهم لم يفقدوا مقود بعير •

التجار الكارمية طائفة من البيوتات التجارية والمالية الاسلامية ، عمودها الفقر ىهو الأسرة • ورب الأسرة الكارمى يدرب أبناءه وعبيده الأحرار على التجارة والاستثمار وبذلك يرث الأبناء خبرة الآباء فضلا عن صلاتهم بالعملاء التقليديين وأسواقهم التقليدية بما فيها من سلع ومعاملات •

اهتم الكارمية بتحقيق السلام وفض المنازعات بين السلاطين والملوك وخاصة بين اليمن ومصر تأكيدا على أهمية المصالح التجارية المشتركة • اهتموا أيضا بنظام الضرائب ، وكان لهم فى مصر ادارة ضرائب خاصة • كما اهتموا بتنظيم شئونهم الضرائيبية عامة خارج مصر • وذلك نجد تجار الكارم فى كانتون (بالصين) مثلا يصلون الى القاهرة فى بداية القرن الرابع عشر ، حيث قدموا شكواهم من سوء معاملة سلطات الضرائب فى عدن ، وعن التعسف فى جمع الضرائب ورفع فئاتها •وكانت مصر موفقة فى حل مثل هذه المسائل •

لم يرتفع شأن هؤلاء الكارمية فى سوق التجارة وحدها ، بل كان لهم شأن كبير فى تداول الأموال الضخمة والقروض الهائلة ، حتى أن الدولة — أعنى سلطان المماليك أو ملك اليمن من الأسرة الرسولية — كانت تستدين منهم • بل وصل الأمر الى ما هو أهم من ذلك : كانت الكارمية تحمى قوافلها فى البر والبحر بفرق دفاعية مسلحة • كما كانوا يقدمون فرق الحراسة هذه الحكومة نفسها ، للعمل على استتباب الأمن أو المشاركة فى بعض الحملات — حسب ما تقتضيه ظروف العصر • وكثيرا ما قدموا الهدايا السخية للسلاطين والأمراء • فلا غرابة اذن اذا علمنا أن رأس مالهم كان يربو على الملايين •

ولا شك أن أهم تاجر أجنبى تعامل معه الكارمى هو التاجر الايطالى أو تاجر مرسيليا أو برشلونة • هؤلاء التجار التقوا بالكارمى فى موانى مصر على البحر المتوسط وفى سوريا • وفى مقدمة التجار الأجانب ، تجار جمهورية البندقية وجمهورية جنوة • وكانت الاسكندرية أهم سوق تجارية للبندقية وجنوة فى شرق المتوسط • والفندق ، كما ذكرنا ، هو ذروة النشاط التجارى الوسيط • وفنادق الأجانب كانت أشبه بالقلاع • وقد شاعت شهرتها حتى أن فندق الألمان فى البندقية بنى على طراز فندق البنادقة فى الاسكندرية • أهم سوق تجارية للبندقية وجنوة ، بعد عام ١٢٠٤ أصبح للبندقية فندقان فى المدينة •

والفندق ، كما ذكرنا ، هو ذروة النشاط التجارى الوسيط • يشرف على شئون الفندق والنازلين فيه القنصل الذى يمثل مصالح دولته ومصالح تجارها فى الميناء • ويدير الفندق الفندقى (Fundiçarus) ، وله معاونوه • ويتمتع الفندق والنازلون فيه ببعض الامتيازات ، كاستعمال الموازين والمكاييل الخاصة والمخبز الخاص والكنيسة الخاصة بداخله • والتاجر الأجنبى ينزل بالفندق المخصص لبنى جلدته ، أما التاجر المسلم فله أن يختار أحد الخانات أو الفنادق الاسلامية أو بيوت أصدقائه وعارفيه •

وقد قدم لنا الرحالة بنيامين التطيلى — النصف الثانى من القرن الثانى عشر — قائمة بعدد فنادق الاسكندرية وأسماء دول نزلائها وبلدانهم تربو على ثلاثين فندقا • ومهما كان الشك فى صحة هذا الرقم الا أنه يدل دلالة واضحة على الظاهرة الجديدة — ألا وهى أن الاسكندرية قد أصبحت مدينة دولية الطابع •

ومن الطريف أن نعلم أن مصر لم تتعنت فى تحديد مدة اقامة التجار الأجانب فى موانيها حتى أن بعض هؤلاء التجار ولد وعاش واشتغل بالتجارة فى الاسكندرية ، وان ارتبط بالجمهورية الأجنبية التى يتبعها • وكان التعامل بين الكارمى والبندقى أو الجنوى أو المرشيلى أو البرشلونى سمة من سمات العصر لا تشوبها شائبة ، مادام التعامل هو دستور الطرفين ، ومادام السلام قائما بين مصر وبين دولهم • وفى حالة الحرب تتعقد الأمور وتبدأ المراقبة أو المحاصرة وأخيرا يتم الاعتقال •

— مهما يكن من شىء فقد شق التخصص طريقه فى ميدان هذه العلاقات • فتخصصت البندقية فى تجاره الفلفل بالذات ، وأصبحت الاسكندرية أكبر سوق للفلفل فى الشرق • والكارمى هو المصدر الأكبر للفلفل • وتجار البندقية هم الموزع الأول للفلفل الى غرب أوربا • كما تخصصت جنوة فى تجارة الرقيق ، فكانت مراكبها تحمل فى عصر

المماليك والى بداية القرن الخامس عشر ما يقرب من ألفى مملوك وجارية الى مصر سنويا • ومن هؤلاء المماليك صغار السن كان يتألف جيش المماليك بنظامه المعروف • وكان سلاطين المماليك يهتمون بتشجيع استيراد السلع الحربية كالحديد والخشب والقطران ، فضلا عن الأسلحة بأنواعها المختلفة • وكانت الحكومة تغرى تجار الغرب بتخفيض الضرائب على هذه السلع أو بالغائها • كما اهتمت الدولة باستيراد المعادن من السوق الأوربية ، وعلى رأسها الذهب والفضة والنحاس • ومن التجار الأجانب من أحضر هذه المعادن ليضربها نقودا اسلامية فى دار الضرائب بالمدينة ، ثم يتعامل بها •

وفئات الضرائب سواء على الصادر أو الوارد كانت كثيرة ومعقدة• ولكن النسبة العامة للضريبة تمثل حمولة سفينة من مجموع حمولة ثلاث سفن أو أربع على الأكثر — أى أن مصر ، أعنى خزانة السلطان بالذات، كانت تحصل على حوالى ٣٠٪ من قيمة السلعة •

ننتقل بعد ذلك الى النقطة السادسة والأخيرة فى هـذا البحث ألا وهى اضمحلال تجارة مصر • وهذه فى الواقع نقطة حساسة وشاقة

هناك تاريخان مهمان يمكن أن نحدد بهما بداية هذا الاضمحلال : عام ١٣٦٥ وعام ١٤٠٠ •

ففى عام ١٣٦٥ نهبت الاسكندرية ، نهبتها حملة بطرس لوسنيان — الملك الشاب وصاحب جزيرة قبـرس الذى عرف بنعرته الصـليبية المتطرفة • لم تنس مصر هذه الحملة الغاشمة • وصمم سلاطين المماليك على الانتقام بغزو جزيرة قبرس • ولم يقلل عقد الصلح بين أطراف النزاع ، ولم تقلل افاقة ثغر الاسكندرية من هذه العثرة ، لم يقلل هذا كله من عزم مصر على غزو قبرس : فقبيل نهاية القـرن الرابع عشر استعادت الاسكندرية مركزها التقليدى فى عالم التجارة والمال ، كما

استعادتهما بعد طاعون عام ١٣٤٩ الذى أصاب العالم كله وطوح بثلث سكان العالم على وجه التقريب .

الضربة الثانية التى منيت بها حدود الامبراطورية المصرية هى غارة تيمور لنك التى كادت تهلك أسواق الشام الغنية وصناعاتها المشهورة . ولكن ما خلفه لنا رحلة النصف الأول من القرن الخامس عشر ومؤرخوه يدل أيضا على أن الشام استطاعت أن تسترد نشاطها التجارى بعد غارة تيمور لنك المحزنة .

أما المقريزى فيحدثنا عما سماه بخراب أسواق القاهرة فى مطلع القرن الخامس عشر . والباحث لا يستطيع أن يقنع أو يقتنع بهـذين التاريخين تمام الاقتناع .

ان نظرة فاحصة لخريطة الشرق الأوسط فى النصف الأول من القرن الخامس عشر قد تساعدنا على استقراء الأحداث التى بدأت تحول مجرى لتاريخ فى المنطقة . أول هذه الأحداث وأخطرها هو غيـاب الاستقرار السياسى على الحدود الشمالية للامبراطورية المصرية . بعد انتهاء غارات تيمور لنك على الشام وآسيا الصغرى . هجرات القبائل التركية ، وكثرة تحركاتها ، والتقلبات السياسية التى صاحبتها أجهدت مالية مصر واستنزفتها ، لكثرة ما أرسلته من حملات باهظة التكاليـف لحماية هذه الحدود / نشاط قراصنة جزيرة رودس والاسبتارية ، فضلا عن التركمان الذين استقروا على سواحل آسيا الصغرى واختلطوا باليونانيين واشتغلوا أيضا بأعمال القرصنة ، هددوا طرق الملاحة فى شرق البحر المتوسط ، وبدأوا بمهاجمة السفن المصرية المحملة بالغلال التى احتاجت اليهـا مصر حاجة ماحة للتخفيـف من حـدة الأزمات الاقتصادية فى بعض سنوات القحط بها . نجاح العثمانيين فى لم شملهم وجمع كلمتهم بعد هزيمة أنقرة المنكرة أمام تيمور عام ١٤٠٢ ، ثم تفوقهم العسكرى فى جنوب أوربا ، ثم قيامهم بضرب بيزنطة ضربة قاضـية

بالاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية عام ١٤٥٣ • وبذلك تحكموا فى أهم طرق التجارة بين جنوب روسيا والبحر الأسود من ناحية ، وشرق البحر المتوسط من ناحية أخرى / وعانت البندقية ، أكبر عميل لمصر ، من هذه الضربة عناء كبيرا • وفى الوقت نفسه عجزت جنوة عن تقديم العدد الكافى من الرقيق من منطقة البحر الأسود الى سلاطين مصر الذين اضطروا الى شراء مماليك كبار السن نسبيا ، فتعذر تدريبهم وساء حال لجيش ، وضعفت روحه المعنوية • والحوليات المصرية مليئة بمفاسد هؤلاء المماليك فى القرن الخامس عشر عامة والنصف الثانى منه خاصة •

أرسلت مصر حملاتها الى رودس وقبرص ورغم ما حققت هـذه الحملات من نفوذ مصرى الا أن خطر القرصنة ظل جاثما • صاحب هذه العمليات العسكرية تحول خطير فى سياسة مصر التجارية • فلم يكن من محض الصدف أن يبدأ السلطان برسباى سياسته فى احتكار تجارة التوابل لسد نفقات حملاته على رودس • نظم برسباى هذه السياسة الاحتكارية لأهم تجارة بين الشرق والغرب • وبدأ بالتخلص من كبار التجار وعلى رأسهم الكارمية ، الذين كانوا يملكون الملايين المعطلة من الدنانير • ذكر لنا ابن حجر العسقلانى أن عدد تجار الكارمية الذين يملك كل واحد منهم الملايين من العملات الذهبية ـ ذكر لنا أن عددهم يزيد على مائة تاجر أى مائة بيت كارمى • أصاب احتكار الدولة للتجارة المارة بين الشرق والغرب الكارمية فى الصميم • بدأ بعض تجار الكارمية فى هجرة الامبراطورية المصرية وتقاعس بعضهم واستسلم لمصيره المظلم • ومنهم من انتقل الى الهند والشرق الأقصى • وبدأ عملاء الكارمية من تجار الفرنج فى الاسكندرية وينكرون على السلاطين نحكمهم فى الأسواق ورفع الأسعار الى حد باهظ لا يتفق مع رواج السلع وانتظام الدورة التجارية • ومما زاد فى تعقيد الموقف ضعف الانتاج الزراعى الذى أدى الى التمسك باحتكار السلطان للتجارة بعد أن جعل جدة الميناء الوحيد للتجارة المارة فى البحر الأحمر ، وبعد أن دب الفساد

فى اليمن وزاد جشع الحكام فى جمع الضرائب فى عدن حتى اضطروا الى تجنبها .

بدأت سفن الفرنج تغادر الاسكندرية دون بيع أو شراء احتجاجا على سياسة السلطان بعد أن طالبوه باعادة حريته مع التجار الكارمية . ثم أخذت عناصر جديدة تدخل ميدان التجارة الضخمة مثل أرغونة وميناؤها برشلونة . ولما فشلت أرغونة فى اقناع السلاطين بالتخلى عن سياسة الاحتكار ، بدأت أعمال القرصنة . وبذلك استفحلت مخاطر التجارة . وزاد الطين بلة أن بدأ السلاطين فى احتكار التجارة الداخلية أو أهم فروعها ، كتجارة السكر والأقمشة . تحكم فى أسعار هذه السلع وبدأ الانتاج نفسه فى الهبوط . كما أمعن سلاطين القرن الخامس عشر عامة فى سياسة الطرح وهى فرض السلع التى يشتريها السلطان من التجار بسعر منخفض ليبيعها بسعر مرتفع للناس والتجار أيضا . نزعت الأسعار . استشرى الفساد فى ميدان التعامل النقدى عندما ضعفت القوة الشرائية للعملة بعد أن قل تداول الذهب والفضة وانتشرت العملات النحاسية وغيرها من المعادن المنحطة ، بسبب التضخم وغلاء الأسعار . وجدير بالذكر أن أزمات العملة النحاسية — بشتى أحجامها وضعف قيمتها — قد تكررت وتعددت حتى امتلأت بها حوليات النصف الثانى من القرن الخامس عشر . هذا من الناحية . ومن الناحية الأخرى كان التجار يسحبونها من الأسواق المصرية الى أسواق البحر الأحمر والمحيط الهندى . مر النقد المصرى اذن بأخطر أزماته فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وزادت أهمية عملات الفرنج حتى وصلت الى اليمن . واتهم السلاطين البندقية وغيرها من عملاء مصر التقليديين باهمالهم الاتجار مع مصر وبعدم استحضار الذهب الذى تعودوا حمله معهم الى الاسكندرية ، دون أن يذكر هؤلاء السلاطين الأزمات التى كانت تمر بها البندقية من جراء توسع العثمانيين الذين أخذوا على عاتقهم القضاء على امبراطورية البنادقة التجارية فى شرق البحر المتوسط . هذا الى جانب الحروب التى اشتركت فيها البندقية مع

جيرانها مما أرهق ماليتها وأضعف مركزها التقليدى القوى فى حوض البحر المتوسط وعندما انتصر السلطان سليم على الدولة الصفوية واسماعيل الصفوى أو الصوفى فى موقعة تشالديران عام ١٥١٤ بعث الى خصمه الثانى ، السلطان الغورى ،بعث اليه برسالة يتهكم فيها ويقول أن العملة المصرية قد انحطت قيمتها الى درجة أن تجار الرقيق يرفضونها ، وبالتالى لا يصل الى مصر العدد الكافى من المماليك كيما يحتفظ جيش مصر بقوته المعهودة • وما قاله سليم فى هذه الرسالة صحيح ، ولكن تعقيبه غير صحيح • فقد كان جيش مصر قادرا على الدفاع عنها لولا الخيانة التى وقعت فى صفوفه ، ولولا تمسك المماليك بالأسلحة التقليدية بينما استعمل العثمانيون الأسلحة النارية التى حققت النصر فى موقعة مرج دابق عام ١٥١٦ • ومن المؤسف حقا أن العثمانيين قد تمسكوا بسياسة تجارية رجعية لا تتفق أو تتناسب مع التحول العالمى الجديد بعد الاستكشافات الجغرافية • ولكن هذا موضوع آخر •

راجع للمؤلف فى بعض نقط هذا الموضوع :

S. Labib :

(1) Les marchands Kàrimis eu Orient et sur l'Océan Indien, in: M. Mallat (Ed.) : Sociètès et Companies de Commerce eu Qrient et dans l'Océan !ndien, Paris, 1970.

(2) Medieval Islamic Maritime Policy in the Indian Ocean Area., in : «Les Grandes Escales», I, Recueils de la Société Jean Bodin, T. 32, Bruxelles, 1974.

(3) Die mittelalterliche Islamische Politik Im Mittelmeerraum., in : «Stud n Mèmoria d Federzo Melis», vol. I, Roma, 1978.